خليل مردم بك

وكتابه فى الشاعر الفرزدق

لأستاذ جليل

من القضاء الغريب بين الفرزدق وجرير ما رواه الأستاذ المرزبانى عن الأغانى : « تنازع فى جرير والفرزدق رجلان من عسكر المهلب . فارتفعا إليه وسألاه ، فقال : لا أقول بينهما شيئاً ثم دلهما على الخوارج . فلما تواقف الجيشان بدر أحد المتنازعين من الصف إلى عبيدة بن هلال اليشكرى الخارجى فسأله عنهما ففضل جريراً : قال من الذى يقول :

وطوى الطراد مع القياد بطونها طى التجار بحضرموت برودا[1]

قال : جرير . قال : هذا أشعر الرجلين »

فالذى يلوح لنا فى هذه الحكومة أن الخارجى رأى بيت جرير أمير شعره وأن ليس للفرزدق شبهه فقضى له ، أو أن من يقرض مثل هذا البيت حقيق بالتقديم (ونذر فى هذا المقام البحث عن قيمة هذا البيت وخطره) أو أن عبيدة التفت إلى الديانة ففضل المتقى على من فجر

وإن تفضيل قائل على قائل لمعنى من المعانى المذكورة لهو الحيف المحض ، وخروج على سلطان الحق ، ألا (لاحكم إلا لله) ولا قضاء مقبول إلا من مقسط ذى نصفة

ولولا أن يغضب أو أن يشرى[2] صاحبنا الأستاذ أبو إسحق أطفيش نزيل القاهرة ومن علماء إخواننا الأباضية وفضلائهم — لشننا على (الشراة[3]) غارات ، وفندنا (مقالاتهم) الخارجية بمقالات فى (الرسالة الغراء) متلاحقات ...

وممن عادل الخارجىّ فى جنفه فى حكمه ، بل أربى على جميع الجورة فى القضايا الأدبية الحسن بن بشر الآمدى صاحب (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) فقد ظهر فى كتابه (أجور من قاضى سدوم[1]) وأرانا كيف يكون الظلم المعبقرى «استعان الرجل بالله — كما قال — على مجاهدة النفس ومجاهدة الهوى وترك التحامل » وأقبل يوازن ، فماذا صنع ؟

يأخذ بيتاً لحبيب قال فى معناه الوليد وينصب ميزانه ، وهو هواه الوازن

ولأبى تمام أبيات عبقريات ، كل بيت منها بديوان ، وله قصائد باهرات مدهشات

هذه لا توضع فى الميزان ، وقد كان قال : « أنا لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة ثم احكم أنت ». ولكنه لم يفعل ذلك واجتزأ بإيراد أبيات لكل من الطائيين وجعل يلغو لغوه[2]

وإذا قال أبو تمام :

إن لله فى العباد مناياً سلطتها على القلوب العيون

وقال البحترى :

قال بطلاً وأفال الرأى من لم يقل إن المنايا فى الحدق

فهنا يتوارى الوازن والموازنة ويرفع الميزان . وبيت الوليد شرح طويل ، مَطمَطة[3] ...

وقد كان ابن الأثير أنصف[4] من الآمدى حين قضى بين حبيب والمتنبى فى رثاء ولدين صغيرين لعبد الله بن طاهر ، وطفل لسيف الدولة ؛ وبين البحترى وأبى الطيب فى وصف الأسد . وقد شأى الكندى الطائيين فى الرثاء والوصف

وإنى لموقن أن الآمدى فارق الدنيا ولم يعرف أبا تمام وعبقريته. وممن علم ذلك وأعلن فضل ابن أوس — أبو بكر بن يحيى الصولى صاحب كتاب (أخبار أبى تمام) الذى أفضل على العربية بنشره الفضلاء : خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام ، نظير الإسلام الهندى — بارك الله فى الهند — وقد أعطى الكتاب بعض حقه فى مقالة فى الجزء (٢٢٥) من (الرسالة). وكانت مجلة (المقتطف) ذكرت كتاب الصولى ، وحافت على حبيب فرُدّ عليها ولميت

---

(١) يصف خيلا

(٢) يشرى : يشتد غضبه ، وفى الصحاح : شرى فلان غضبا إذا استطار غضباً

(٣) الشراة الخوارج ، سموا أنفسهم شراة لأنهم أرادوا أنهم باعوا أنفسهم لله ، والواحد شار ، والشارى — بتشديد الياء — ليست الياء للنسب وإنما هو صفة الحق به ياء النسب تأكيداً للصفة . وأشرى وتشرى صار كالشراة فى فعلهم (اللسان التاج) ومن قول أحد الشراة وكان ينشده يوم المصاف :

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى
جورکم أخرجنى من دارى

١٣ ، ١٧

---

(١) سدوم بالدال ، قال الطبرى : هو ملك من بقايا اليونانية غشوم كان بمدينة سدمين من أرض قنسرين (الميدانى)

(٢) لغا بكذا يلغو لغواً : لفظ به وتكلم

(٣) المطمطة مد الكلام وتطويله كما فى المخصص والتاج

(٤) قال ابن الحريرى قولهم : (فلان أنصف من فلان) خطأ ، وقد قالته العربية : « وإذا هجم السباع هرب القياس » راجع شرح الدرة الصفحة (١٥٨)

فى مقالة فى الجزء (٢٣٥) من (الرسالة) وأغلب الظن أن الكاتب فى المقتطف ما قرأ كتاب الصولى فيعرف ذلك الشاعر العظيم ، فقال على المخيل أو على ما خيلت كما يقولون .

* * *

ألا إن الشعر لأكثر مما يرى ذاك الخارجى وهذا الآمدى وأعظم ؛ وإن فضيلة الفرزدق فيما يبينه أديبنا الكبير الأستاذ المردى فى كتابه :

« لا تجد شعراً أكثر تأثراً بالإسلام ، والعصبية العربية ، ولا أصح لغة ، ولا أجزل أسلوباً ، ولا أجمع لشوارد العربية وفسحها ، وأخبار العرب وأيامهم — من شعر الفرزدق »

« والفرزدق على جفاء طبعه له مخيلة تفيض بالحياة ، ومحسن الابتكار والابتداع ووضع الأقاصيص بأسلوب حسن[1] »

« والفرزدق على أميته واسع الرواية كثير المحفوظ ، ولم يقف عند حفظ أشعار العرب وأخبارهم بل حفظ القرآن ، وروى الحديث النبوى . قال صاحب خزانة الأدب (البغدادى) : (روى الفرزدق عن على عليه السلام وعن غيره من الصحابة) . وقال صاحب النجوم الزاهرة : (روى الفرزدق عن علىّ بن أبى طالب وغيره وكان يرسل[2] ، وروى عن أبى هريرة وعن جماعة) فثقافته أعلى ثقافة يبلغها شاعر فى ذاك العصر »

« ويجمع الفرزدق إلى خصب المخيلة وسعة الرواية كثرة النواحى ، فشعره سجل حياته ومرآة عصره »

« ونفس الفرزدق طويل ، وقصائده التى تزيد أبياتها على المئة كثيرة ، وله القصائد القصار ، وهو فى كلا القسمين لا يسف ولا ينزل عن طبقته »

« وقد استقام للفرزدق من الأبيات الجامعة بين شرف المعنى وشرف اللفظ ما لم يستقم لغيره ، فهو أكثر الشعراء الإسلاميين بيتاً مقلداً[3] »

(١) راجع الصفحة (٥٤) من كتاب الأستاذ للوقوف على بعض الأقاصيص التى وضعها

(٢) فى (التاج) : الأحاديث المرسلة التى يرويها المحدث إلى التابعى بأسانيده متصلة إليه ، ثم يقول التابعى : قال رسول الله ولم يذكر صحابيا سمعه من رسول الله . وفى (مقدمة ابن الصلاح) : صورته أى المرسل حديث التابعى الكبير الذى لقى جماعة من الصحابة وجالسهم إذا قال قال : (قال رسول الله) . وفى (إرشاد السارى) للقسطلانى : وهو أى المرسل ضعيف لا يحتج به عند الشافعى والجمهور واحتج به أبو حنيفة ومالك وأحمد فى المشهور عنه فان اعتضد بمجيئه من وجه آخر مسنداً أو مرسلا آخر أخذ رجاله عن غير المرسل الأول احتج به

(٣) المقلد المغنى المشهور الذى يضرب به المثل (الاغانى) المقلد البيت المستغنى بنفسه المشهور الذى يضرب به المثل (الجمحى) مقلدات الشعر البواقى على الدهر (اللسان)

« وشعره فى جملته يدل على قدرة الشاعر وبعد نظره وإحاطته بما يرمى إليه من الأغراض وسعة مخيلته وانفساح مجاله ولذلك كثرت فيه الصور »

هذه جمل من (الكتاب) فى باب البحث عن شعر الفرزدق وهى تساند مقالة البحترى فى « معانى الفرزدق وحسن اختراعه وبأبواب مجاله التى يخترعها ويبدع فيها » وتعلن من النبوغ الفرزدقى ما تعلن ، وتقوى الظن الذى ظننناه فى اختيار الأستاذ هماماً من بين الثلاثة الإسلاميين واختصاصه إياه بهذا الكتاب . وقد أوضح الأستاذ المردى ما أوردته من أقواله أبلغ إيضاح ، وأيدها بأبيات كثيرة للشاعر

يقول الأستاذ فى تضاعيف البحث عن شعر همام : « وأما تمثيله العربية فى فصاحتها وشواردها ، وتاريخ العرب فى مناقبهم ومثالبهم حتى قيل (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب[1]) وقيل (لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس) فذلك لكثرة مفرداته ، وصحة تراكيبه ، وجزالة أسلوبه ، واشتمال شعره على الغريب ، وأوجه التعابير الفصيحة ، ووفرة ما تضمنه تخره ومجاؤه ومدحه من أخبار العرب وأيامها ومفاخرها ، ومثالب من يهجوهم فى الجاهلية والإسلام . خذ مثلاً لذلك نقيضة من نقائضه مع جرير تجد فيها صحة اللغة وفصاحة الأسلوب وجزالة التركيب ورصانة القافية وعراقة العربية مع شىء من الغريب كما تجد كثيراً من أخبار العرب فى الجاهلية والإسلام ، فلو جمع باحث مفردات الفرزدق التى استعملها فى شعره لكادت تكون معجما ، ولو توفر على ترتيب ما فيه من الأخبار والحوادث والمفاخر والمخازى والمادات والأساطير والخرافات لجمع تاريخاً لحوادث الجاهلية وحياتها الاجتماعية . والشواهد على ذلك أكثر من أن تذكر نكتفى بإيراد قليل منها قال : نقائض ص١٨٩ » وروى الأستاذ ثمانية أبيات من القصيدة التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

ثم قال : « هذه الأبيات الثمانية فيها من الأخبار والحوادث والأيام ما استغرق عشر صفحات من كتاب النقائض ، ولا سبيل لتلخيصها هنا » وأشار إليها ، وروى وبيّن غير ذلك مما يحق مقالته فى الفرزدق .

وممن يماثل هذا الشاعر من المولدين فى اشتمال كلامه على أخبار كثيرة وإشارات ذات بال — حبيب « ففى شعره علم جمّ من

(١) يونس

النسب، وجلة وافرة من أيام العرب » وأبو بكر الخوارزمي الذي يستظهر رسائله كلها العلامة الأستاذ الأمير شكيب أرسلان

والقول المتقدم في أبي تمام هو في (رسائل الانتقاد) لابن شرف القيرواني، وقد نشرها العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي في مجلة (المقتبس) للعلامة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

ويقول الأستاذ : « ومن التعابير العربية التي حفظها لنا شعره قوله : نقائض ص ٢٨٣

أو بين حيّ أبي نعامة هارباً
أو باللحاق بطيّ الأجيال

حيّ أبي نعامة أي وهو حيّ تقول فعلت ذاك حيّ فلان أي وفلان حيّ »

وهذا القول قد هدانا إليه بيت الفرزدق. وفي العربية شيء كثير من مثل هذا التعبير خفي معناه أو أشكل ولم يكشفه لنا شرح أو تفسير. قال ابن فارس : « إنا نرى علماء اللغة يختلفون في كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان » ، وأورد في كتابه (الصاحبي) طائفة من الأقوال لم تستبن حقيقتها عنده ، ومما ذكره : « يروى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : (لا تقولوا دعدع ولا لعلع[1] ولكن قولوا : اللهم ، ارفع وانفع) فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرههما النبي صلى الله عليه وسلم »

(الاسكندرية)

* * *

(١) في اللسان : دع دع : كلمة يدعى بها للعاثر في معنى قم وانتعش واسلم كما يقال له : لعا ، قال : لعى الله قوما لم يقولوا لعاثر
ولا لابن عم نالـه العثر دعدعا
ودعدع بالعاثر قالها له ، رؤبة : وإذ هوى العاثر قلنا دعدعا
له وعالينا بتنعيش لعا =

= وفي التاج : لم ولعلع كلاهما بمعنى لما يقال للعاثر كما في المحيط وتلمعت به قلت له ذلك ، ونص المحيط لعلعت به
فهل لذلك معنى غير الذي قال اللسان والتاج ؟